البواعث على التوبة

- معرفة مقام الله تعالى وحقه .
- ذكر الموت والقبر .
- ذكر الآخرة والجنة والنار .
- معرفة آثار المعاصى فى الدنيا والآخرة .
- خاتمة .

البواعث على التوبة

التوبة منزلة عظيمة من منازل الدين ، ومقام رفيع من مقامات المتقين ، وحاجة كل مسلم مكلف إليها - وخصوصا السالك فى طريق الله - حاجة ماسة ، ولهذا كان شأنها شأن كل منازل الدين ، وأخلاق الصالحين لا تخلو من عقبات وموانع تعوق طريقها ، وتحول دون الوصول إليها ، كما أن لها بواعث ودوافع تحفز عليها ، وتحض على التزامها .

ونود فى هذا الفصل أن نبحث فى هذه البواعث ، وأن نلقى الضوء عليها ، حتى نحرك الهمم ، ونشحذ العزائم للتوبة إلى الله جل ثناؤه .

١ - معرفة مقام الله تعالى وحقه

أول هذه البواعث : أن يعرف الإنسان مقام ربه الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، وأن يعرف حقه على عباده الذين خلقهم ورزقهم ، وأنعم عليهم بجلائل النعم ودقائقها ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (١) .

وحقه تعالى على عباده : أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئا ، وأن يذكروه فلا ينسوه ، ويشكروه فلا يكفروه ، ويطيعوه فلا يعصوه .

روى الشيخان عن معاذ بن جبل أنه كان رديفا للنبى ﷺ على حمار ، فقال له : يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد : أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا . وحق العباد على الله : ألا يعذبهم » .

ومهما يقدم الإنسان من العبادة لله عز وجل ، فلن يوفى حق الله تعالى عليه ، لأن نعم الله عليه : أعظم من عبادته له سبحانه، وإن طال العمر .

---

(١) النحل : ٥٣ .

يقول رسول الله ﷺ :

« لو أن رجلا يُجَر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرما فى مرضاة الله تعالى ، لحقره يوم القيامة » (١) .

والإنسان إذا عرف مقام الله تعالى - وتذكر جلاله وعظمته ، وعلمه به ، وقدرته عليه ، وأنه مطلع على سره وعلانيته ، وأنه لا يخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وأنه محاسبه على ما قدم ، ومجازيه على ما عمل من خير أو شر ، إذا عرف ذلك وذكره ولم ينسه ، سرعان ما يرجع إلى ربه سبحانه تائبا مستغفرا ، كما قال تعالى فى وصف المتقين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، فانظر كيف جعل استغفارهم لذنوبهم نتيجة لذكرهم لربهم « ذكروا الله فاستغفروا » والذكر هنا ليس باللسان كما قد يتوهم ، بل هو ما يقابل النسيان كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (٣) أى استحضروا جلال الله تعالى وشهدوا أسماءه الحسنى ، مثل : العليم بذات الصدور ، والرقيب والحسيب، الواحد القهار ، والعزيز الجبار : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) .

ولا يليق بالمسلم إذا غرته نفسه أو غره بالله الغرور ، فسقط فى المعصية : أن يتمادى فيها ، ويصر عليها ولا يسارع بالتوبة منها ، يجرئه على ذلك أن الله تعالى لم يعاجله بالعقوبة ، فإنه - جلّ شأنه - يمهل ولا يهمل ، ويملى للعاصى ، والظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ولا تحسبن الله غافلا عما يفعل العصاة والفجار ، فقد يكون

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى التاريخ والطبرانى عن عتبة بن عبد ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٥٢٤٩) .

(٢) آل عمران : ١٣٥ . (٣) الكهف : ٢٤ . (٤) غافر : ٣ .

ذلك عن مكر بهم ، واستدراج لهم ، حتى إنه قد يوسع عليهم فى الرزق ، ويمدهم بالمال والبنين ، ثم يأخذهم فى النهاية أخذ عزيز مقتدر﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

يقول ابن عطاء الله فى حكمه :

خف من وجود إحسانه - تعالى - إليك ، ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجا لك .

يشير إلى قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (٢).

والاستدراج : أخذ النعمة من المستدرج شيئاً فشيئا وهو لا يشعر .

وقال سهل بن عبد الله فى معنى الآية : نمدهم بالنعم ، وننسيهم الشكر عليها ، حتى إذا ركنوا للنعمة وحجبوا عن المنعم ، أخذوا .

وقال غيره : كلما أحدثوا معصية ، أحدثنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الخَيْرَاتِ ، بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ (٤).

وقال جل شأنه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) هود : ١٠٢ .
(٢) الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٣) آل عمران : ١٧٨ .
(٤) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ .
(٥) الأنعام : ٤٤ ، ٤٥ .

يقول ابن عطاء الله فى حكمه :

إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء ، فاشهد ما منَّه (تعالى) إليك ، وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن ، فاشهد ما منك إليه !

ويعنى بما منه إليك : النعم التى تغمرك من كل جانب ، وقد أسبغها عليك ظاهرة وباطنة ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢) .

وهناك نعم أساسية ، وهى : نعمة الخلق والإيجاد ، ونعمة التيسير والإمداد ، ونعمة الحفظ والإبعاد ، أى إبعاد المحن والبلايا عن الإنسان .

وأما ما كان منك إليه سبحانه ، فيعنى به : التقصير فى أداء ما أمر ، واقتراف ما عنه زجر ، وعدم الرضا بما قضى وقدر .

وقلما يخلو مكلف من وقوع بعض هذا منه : من التفريط فى المأمور ، أو ارتكاب المحظور ، أو السخط على المقدور .

* * *

---

(١) لقمان : ٢٠ .

(٢) إبراهيم : ٣٤ .

٢ - ذكر الموت والقبر

ومن البواعث على التوبة من الذنوب : أن يتذكر المرء الموت ، الذى هو مصير كل حى ، قصر عمـــره أو طال ، فهو حـوض كل الناس وارده ، وكأس كل حى شاربه .

حتى أحب الخلق إلى الله الأنبياء والرسل ، وخاتمهم ومصطفاهم محمد ، كتب عليهم الموت ، كما كتب على غيرهم ، قال تعالى مخاطبا رسوله محمداً عليه السلام ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (١) ، وقال له فى موضع آخر : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) .

إن الموت أصدق غائب ينتظر ، وهو حقيقة بينة للحس وللعقل لكل الناس ، وهو أحد الواعظَيْن اللذين تركهما النبى ﷺ مـــن بعده : الواعظ الناطق ، وهو القرآن ، والواعظ الصامت ، وهو الموت ، وكفى بالموت واعظا لمن كان له قلب يحس ، وعقل يعتبر .

وما أصدق ما قال الشاعر فى ميت عزيز عليه :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا !

إن الموت يختطف الأب من بنيه ، والابن من أمه وأبيه ، والأخ من أخيه ، ومن فصيلته التى تؤويه ، والحبيب من حبيبه ، والملك من فوق عرشه ، والقائد وهو بين أسلحته وجنوده ، والثرى ومعه ملايينه وبلايينه ، لا يستأذن أحدا قبل أن يأخذه ، كبيرا أو صغيرا ، غنيا أو فقيرا ، مأمورا أو أميرا ،كلهم لسلطانه خاضعون ،

---

(١) الزمر : ٣٠ . (٢) الأنبياء : ٣٤ ، ٣٥ .

ولدعوته ملبون : ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) .

ويعمَّر الإنسان ويطول أجله فى الحياة ، ولكنه فى النهاية ميت ، وعند الموت تتضاءل حياته ، وينكمش عمره ، حتى ليتمنى لو يمد له قليلا ، وهيهات هيهات لما يتمنى .

وقد حكوا أن نوحا عليه السلام حين جاءه ملك الموت يتوفاه ، قال له : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : وجدتها كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر ! .

فهذا مقدار الدنيا عنده ، وقد لبث فى قومه - يدعوهم إلى الله - ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم أخذهم الطوفان وهم ظالمون ، فكم بقى بعد الطوفان ، وكم كان عمره حين بعثه الله إلى قومه ؟ .

وإذا كان آخر العمر موتا فسواء قصيره والطويل !

ومن هنا ذكرنا القرآن بالموت وشموله لكل الخلق ، لا يمتنع منه نبى بنبوته ، ولا أمير بإمارته ، ولا غنى بثروته ، ولا ذو حصن بحصنه ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ﴾ (٤) .

وقال سبحانه : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (٥) .

ولما جاء الموت رسول الله ﷺ ولحق بربه ، قال بعض الصحابة : لم يمت ،

---

(١) يونس : ٤٩ . (٢) القصص : ٨٨ . (٣) النساء : ٧٨ .
(٤) الجمعة : ٨ . (٥) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

فوقف أبو بكر الصديق يقول : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَاتَ أَوْقُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ (١) .

وقال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت » (٢) .

وقال ابن عمر : أتيت النبى ﷺ ، عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس؟ (أى أعقلهم) وأكرم الناس يارسول الله ؟ قال : « أكثرهم ذكرا للموت ، وأشدهم استعدادا له ، أولئك هم الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا ، وكرامة الآخرة » (٣) .

وشكت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها ، فقالت لها : أكثرى ذكر الموت يرق قلبك .

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظنى ، فقال : لست أول خليفة يموت ، قال : زدنى ، قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت ، وقد جاءت نوبتك ! فبكى عمر لذلك .

وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا ، وكان ينام فيه كل يوم مرات ، يستديم بذلك ذكر الموت ! وكان يقول : لو فارق ذكر المـــوت قلبى ساعة واحدة لفسد ! .

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٠٨) وقال : حسن غريب ، وفى بعض النسخ : صحيح ، وابن ماجه (٤٢٥٨) كلاهما عن أبى هريرة .

(٣) قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه ابن ماجه مختصرا ، وابن أبى الدنيا بكماله بإسناد جيد (الإحياء : ٤ / ٤٥١) ط . دار المعرفة .

وقال مطرف بن عبد الله : إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم ، فاطلبوا نعيما لا موت فيه ! .

فلينظر الإنسان العاقل : كم شيع من الأقارب والأحباب ، وكم دفن من الزملاء والأصحاب ، وليستحضر صور هؤلاء وكيف كانوا فى الحياة آمنين ، ثم فجأهم الموت غير مستعدين ، وليتذكر كيف كان إقبال الواحد منهم على الدنيا ، وحرصه عليها ، ومزاحمته فيها ، ورغبته فى الازدياد من متاعها ، والاستمتاع بملذاتها ، وكيف كان نشاطه وسعيه ، وأمله فى العيش والبقاء ، ونسيانه للموت والآخرة ، وركونه إلى القوة والشباب ، وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وميله إلى اللهو واللعب ، وغفلته عما ينتظره من الموت ، حتى جاءه على غير موعد ، فقال : ﴿ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ومن الحماقة أن يذكر الموتى ويستبعد نفسه أن يكون واحدا منهم فى أى لحظة ، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم !

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم : غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، تضعونه فى صدع من الأرض ، قد توسد التراب ، وقطع الأسباب ، وخلف الأحباب ، وواجه الحساب ! .

ذكر أحوال الناس عند الاحتضار :

ومما يتصل بذكر الموت : ذكر أحوال الناس إذا حضرهم الموت .

وأول ما يجب أن نذكره فى ذلك : حال رسول الله ﷺ ، فقد أحس بدنو أجله بعلامات شتى ، منها : أن جبريل كان ينزل فى كل رمضان ، فيعرض عليه القرآن مرة - وفى آخر رمضان - عرض عليه القرآن مرتين ، ومنها : نزول قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

(١) المنافقون : ١٠ ، ١١ .

وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ [1] وهو ما أبكى أبا بكر ﷺ ، إذ ما بعد الكمال إلا النقصان ! ومنها : نزول سورة النصر ، ولذا كان عليه الصلاة والسلام يعلم الناس فى حجة الوداع ، ويقول : خذوا عنى مناسككم لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ! .. وقال لأصحابه يوما : إن عبدا خيره الله بين الدنيا ، وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » فبكى أبو بكر ، وقال نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ! لأنه فهم أنه المراد من هذا الكلام .

قالت عائشة : سمعت النبى ﷺ يقول فى مرضه الذى مات فيه - وأخذ بحة - يقول : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالْصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [2].

وفى رواية : أنه جعل يقول : فى الرفيق الأعلى ، وهو الرفيق المذكور فى الآية السابقة .

وقالت عائشة : أنها سمعت النبى ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت ، وهو مسند إلىّ ظهره يقول : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، وألحقنى بالرفيق الأعلى » .

وقالت عائشة : ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ وذلك ليتضاعف له الأجر .

قالت : وبين يديه ركوة - أو علبة - فيها ماء ، فجعل يدخل يديه فى الماء ، فيمسح بها وجهه ، يقول : لا إله إلا الله ! إن للموت سكرات ، ثم نصب يده فجعل يقول : فى الرفيق الأعلى . وعن أنس قال : لما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه ، فقالت فاطمة عليها السلام : واكرب أباه ! فقال لها : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » ! .

وكل هذه فى صحيح البخارى وغيره [3] .

---

(١) المائدة : ٣ . (٢) النساء : ٦٩ .

(٣) انظر : البخارى مع الفتح (٨ / ١٢٩ ـ ١٥٠) طـ دار الفكر المصورة عن السلفية .

ولما احتضر أبو بكر ﷺ ، جاءت عائشة إليه فتمثلت بهذا البيت من الشعر :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما ، وضاق بها الصدر !

فكشف أبو بكر عن وجهه ، وقال : ليس كذا ، ولكن قولى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١) : وقال : انظروا ثوبىّ هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت !

ودخلوا عليه ، فقالوا : ألا ندعو لك طبيبا ينظر إليك ؟ فقال : قد نظر إلى طبيبى ، وقال : إنى فعال لما أريد ! .

وحين طُعن عمر ﷺ وعرف الصحابة أنه ميت ، قال ابن عباس : فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله ، قد كان لك صحبة مع رسول الله ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ! فقال عمر : وددت أن ذلك كان كفافا لا علىّ ولا لى ! .

ولما أصيب عثمان ﷺ من دعاة الفتنة الثائرين عليه ، دعا الله تعالى : اللهم أجمع أمة محمد ﷺ .. ثلاثا .. وروى أنه حين ضرب ، والدماء تسيل على لحيته ، جعل يقول: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

ولما ضرب ابن ملجم عليا ﷺ قال : فزت ورب الكعبة ، ثم أوصى بنيه وصية إسلامية جامعة ، ثم لم ينطق إلا بـ (لا إله إلا الله) حتى قبض . ولما حضر الحسن بن على ﷺ الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أقدم على سيد لم أره ! .

وعند موت معاوية تمثل بقول الشاعر :

هو الموت لا منجى من الموت ، والذى نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع !

اللهم فأقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وعُد بحلمك على من لم يرج غيرك ، ولم يثق إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، يا رب أين لذى خطيئة مهرب إلا إليك !

---

(١) سورة ق : ١٩ . (٢) الأنبياء : ٨٧ .

وروى أنه قال : ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى (موضع بمكة) وإنى لم أل من هذا الأمر شيئا ! .

ولما حضرت الوفاة عبد الملك بن مروان ، قال : أشرفوا بى على الغوطة (فى دمشق) ففعلوا ، فرأى غسالا يلوى ثوبا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئاً ، فبلغ ذلك أبا حازم - التابعى الجليل - فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت ، يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه ! .

وقيل له فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ (١) . ومات .

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر ، فقد أحيا الله بك سننا ، وأظهر بك عدلا ، فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق ، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى ألا تقوم بحجتها بين يدى الله .. فكيف بكثير مما صنعنا ؟! وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات .

وحكى عن هارون الرشيد : أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَه ۜ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ (٢) .

وفرش ابنه المأمون رمادا ، واضطجع عليه ، عند موته ، وهو يقول : يا من لا يزول ملكه ، ارحم من قد زال ملكه !

وحين حضر إبراهيم النخعى الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : انتظر رسولا يبشرنى بالجنة أو النار .

وعن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت فقيل له:لم تجزع؟ قال : أخشى آية

---

(١) الأنعام : ٩٤ . (٢) الحاقة : ٢٨ ، ٢٩ .

من كتاب الله وهى قوله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (١) فأنا أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسب .

وحين حضر الفضيل بن عياض الوفاة ، غشى عليه ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراه ، واقلة زاداه ! .

وعند احتضار عبد الله بن المبارك قال لنصر مولاه : اجعل رأسى على التراب ! فبكى نصر ، فقال له عبد الله : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من السعة والنعيم ، وها أنت ذا تموت فقيرا غريبا ! فقال : اسكت ، فإنى سألت الله عز وجل أن يحيينى حياة الأغنياء ، ويميتنى موت الفقراء ! .

وبكى بعضهم عند موته ، فقيل له : ما يبكيك قال : آية فى كتاب الله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

ودخل الحسن البصرى على رجل يجود بنفسه ، فقال : إن أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره ، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد فى أوله .

ودخل المزنى على الشافعى - رحمة الله عليهما - فى مرضه الذى توفى فيه ، فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملى ملاقيا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدرى : أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ، ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جعلت رجائى نحو عفوك سلّما
تعاظمنى ذنبى ، فلما قرنته ... بعفوك ربى ، كان عفوك أعظما
فما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما (٣)

* * *

(١) الزمر : ٤٧ . (٢) المائدة : ٢٧ .

(٣) روى كل هذه الآثار الغزالى فى (الإحياء) فى كتاب التفكر ، وبين شارحه الزبيدى فى (الاتحاف) من أخرجها .

٣ - ذكر الآخرة والجنة والنار

ومن البواعث على التوبة بعد ذكر الموت : ذكر ما بعد الموت ، من حياة البرزخ والدار الآخرة ، والعظيمتين : الجنة والنار .

فإذا كان ذكر الموت صيقلا لجلاء القلب ، فإن الموت إذا كان أشد ما قبله فهو أهون ما بعده ، فبعد الموت مراحل خطرة ، وعقبات شديدة ، وأهوال كبيرة ، تبدأ بحياة البرزخ ، أو حياة القبر ، فالإنسان الذى كان يعيش فى الدنيا فى سكن آمن ، وظل ظليل ، وعيش رغيد ، وأهل وأصحاب ، سرعان ما ينتقل من سعة الدار إلى ضيق القبر ، ومن أنس الأهل إلى وحشـــة اللحد ، ومن رفقة الخلان إلى رفقة الديدان .

ذكر القشيرى عن أبى على الدقاق قال : دخلت على الإمام أبى بكر بن فورك عائدا ، فلما رآنى دمعت عيناه ، فقلت له : إن شاء الله تعالى يعافيك ويشفيك ، فقال لى : ترانى أخاف من الموت ، إنما أخاف مما وراء الموت !

وقد جاء عن عثمان بن عفان : أنه كان إذا وقف على قبر ، يبكى حتى تبل دموعه لحيته ، فقيل له : تذكـــر الجنة والنار ، فلا تبكى ، وتذكر القبر فتبكى ! فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه ، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد » وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه » قال هانىء مولى عثمان : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

وأنا لا أعنى بالقبر : ذلك الشق فى الأرض الذى يدفن فيه الإنسان - بعد موته فى وادى الموتى - فهناك شعوب لا تعرف الدفن ، ولا القبور ، مثل أولئك

الذين يحرقون موتاهم ، ثم يحتفظون بترابهم - وهو كل ما بقى منهم - فهذه الحفنات من الرماد الباقى من حرق الجثة ، هى : القبر ، وإن فيها لموعظة وعبرة !

ونحن المسلمين نؤمن إيمانا لا يتطرق إليه ريب : أن هذا الكون - على ما فيه من جمال وإبداع - ستطوى صفحته ، وتتهدم أركانه ، وتتغير معالمه ، ويستحيل كل جمع فيه إلى شتات ، وكل حى إلى ممات : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ ، وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) هذه السماء فوقنا ستنفطر ، هذه الكواكب ستنتثر ، وهذه الأرض ستبدل غير الأرض ، وهذه الشمس ستكور ، وهذه النجوم ستنكدر ، وهذه الجبال ستسير ، وهذه البحار ستفجر ، أو تسجر ، وهذه القبور ستبعثر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ، وَبَرَزُوا لله الوَاحد القَهَّار ﴾(٢) .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عن الجبَال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا ﴾ (٣) .

وأن الله تعالى سيبعث هؤلاء الموتى ، ويحييهم فى يوم آت لا ريب فيه : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (٤) .

فيقول النبى ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا (أى غير مختونين) قالت عائشة : فقلت : الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » (٥) .

وسمعت ذلك أم سلمة رضي الله عنها ، فقالت : يا رسول الله ، واسوأتاه أينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : شُغل الناس ، قالت : ما شغلهم ؟ قال : نشر الصحائف ، فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل الخردل » قال المنذرى : رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد صحيح .

---

(١) القصص : ٨٨ . (٢) إبراهيم : ٤٨ .
(٣) طه : ١٠٥ - ١٠٧ . (٤) القمر : ٧ .
(٥) متفق عليه .

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[3] .

من واجب كل مقصر ، بل كل مكلف ، أن يخاف هذا اليوم العظيم : يوم الزلزلة ، ويوم القارعة ، ويوم الحاقة ، ويوم الصاخة ، ويوم الطامة الكبرى ، وأن يقرأ القرآن ، وخصوصا الجزءين الأخيرين منه ، ليرى القيامة أمامه رأى العين ، يرى الجحيم وقد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، ويرى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يرى الحقائق قد تكشفت ، والعيون وقد زالت عنها الغشاوات ، قد سقط الملوك الزائفون ، وبقى ملك واحد هو ملك يوم الدين . ومالك يوم الدين : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[4] .

ما أبلغ ما وصف القرآن ذلك اليوم الموعود ، واليوم المشهود ! لنقرأ معا هذه الآيات : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[5] .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ *

---

(١) الأنبياء : ٤٧ . (٢) الإسراء : ١٣ ، ١٤ . (٣) الكهف : ٤٩ .
(٤) غافر : ١٦ . (٥) النازعات : ٣٤ - ٤١ .

وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (١) .

إن مزية المؤمنين أنهم يخافون هذا اليوم ويتقونه ، ويحسبون حسابه ، ولا غرو أن كان من أواخر ما نزل - أو آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ،ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقد وصف الله الأبرار من عباده بقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

هذا فيمن زاد حفنة فى كيل أو نقصها ، أو زاد دراهم من وزن أو نقصها ، طمعا فى أن يأخذ أكثر من ماله من حق ، فكيف بمن ينهب أموال الناس نهبا ، وما بالك بمن يختلس الأموال العامة بالملايين ؟ ومن يقبل الرشا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟ ومن يجمع الثروات الطائلة من عرق الكادحين ، ودموع المستضعفين ، ودماء المظلومين ؟ ومن يتاجر فى السلع الفاسدة ، والأغذية الضارة ، والمخدرات القاتلة ليربح الملايين القذرة على حساب الشعوب والجماهير ؟ ثم يغسل ملايينه - فيما زعموا - بعد ذلك ، وهى من الخبث والنجاسة بحيث لا تطهرها مياه البحار ولا المحيطات .

---

(١) عبس : ٣٣ - ٤٢ .
(٢) البقرة : ٢٨١ .
(٣) الإنسان : ٨ - ١٠ .
(٤) المطففين : ١ - ٦ .

ما أحوج هؤلاء إلى أن يقفوا يوما مع أنفسهم ، ليتذكروا هذا اليوم العظيم الذين تنصب فيه الموازين ، وتنشر فيه الدواوين ، ويحاسبهم فيه رب العالمين ، ويشهد عليهم فيه شهود من أنفسهم ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ ﴾ (١) .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا، قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) .

أحاديث فى الترهيب من النار :

ومما يجب على المكلف - ولا سيما العاصى - أن يذكره : النار ، دارالعذاب التى أعدها الله للكافرين أساسا والعصاة تبعا . وحذرنا الله تعالى منها فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٣) .

وأكتفى هنا بنقل قليل من الأحاديث فى (الترهيب من النار)مما ذكره الإمام المنذرى فى كتابه الشهير (الترغيب والترهيب) .

فعن أنس رضي الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبى ﷺ : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٤) .

---

(١) النور : ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) فصلت : ١٩ - ٢١ .
(٣) التحريم : ٦ .
(٤) البقرة : ٢٠١ ، رواه البخارى .

وعن عدى بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار » قال : وأشاح ، ثم قال : « اتقوا النار » ثم أعرض وأشاح ثلاثاً ، حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » رواه البخارى ، ومسلم .

« أشاح » - بشين معجمة وحاء مهملة - معناها : حذر النار كأنه ينظر إليها .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (١) دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمَّ وخَص ، فقال « يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ،يا فاطمة أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً » رواه مسلم واللفظ له ، والبخارى ، والترمذى ، والنسائى بنحوه .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول : « أنذرتكم النار ، أنذرتكم النار » حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامى هذا ، حتى وقعت خميصة (٢) كانت على عاتقه عند رجليه ، رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم (٣) .

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذى نفسى بيده ، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : « رأيت الجنة والنار » ! رواه مسلم ، وأبو يعلى .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ناركم هذه - ما يوقد بنو آدم - جزء واحد من سبعين جزءا من نار جهنم » قالوا : والله إن كانت لكافية ! قال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا كلهن مثل حرها » رواه مالك ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وليس عند مالك : « كلهن مثل حرها » .

---

(١) الشعراء : ٢١٤ . (٢) الخميصة : كساء أسود وأحمر له أعلام .

(٣) ووافقه الذهبى (١ / ٢٨٧) وفات المنذرى أن ينسبه إلي أحمد ، وهو فى المسند (٤ / ٢٧٢) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها » ، قال : « فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها » ، قال : « فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها ، فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ! وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها » ، قال : « فنظر إليها فإذا هـــى يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يســـمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن ألا ينجو منها أحد إلا دخلها » رواه أبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح [1] .

أحاديث فى الترغيب فى الجنة :

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، أو هجر ومكة » رواه البخارى ، ومسلم فى حديث ، وابن ماجه مختصراً إلا أنه قال : « لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا - أو سبعمائة ألف - متماسكون آخذ بعضهم ببعض ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم،وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» رواه البخارى ، ومسلم .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطـــون ، ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، أزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء » .

« الأَلُوَّةُ » - بفتح الهمزة وضمها ، وبضم اللام ، وتشديد الواو وفتحها - من أسماء العود الذى يتبخر به ، قال الأصمعى : أراها كلمة فارسية عربت .

---

(١) الحديث عند أبى داود برقم (٤٧٤٤) وعند الترمذى برقم (٢٥٦٣) .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبى ﷺ : « أن موسى عليه السلام سأل ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجىء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب قال (أى موسى) : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق والمغرب ، لتفاضل ما بينهم » قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ! قال : « بلى والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » رواه البخارى ، ومسلم .

وفى رواية لهما : « كما تراءون الكوكب الغارب » - بتقديم الراء على الباء .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » رواه البخارى .

وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى إلا أنه قال : « عرضها ستون ميلاً » ، وهو رواية لهما .

أما وصف القرآن للجنة ، وترغيبه فيها ، فهو معلوم لكل من قرأ كتاب الله ، أو استمع إليه . اللهم اجعلنا من أهلها ، وأسكنا الفردوس الأعلى فيها . آمين .

* * *

٤ - معرفة آثار المعاصى فى الدنيا والآخرة

ومن أعظم البواعث على التوبة : أن يعرف العاصى آثار الذنوب فى النفس والحياة ، ويستحضر أخطار المعاصى فى الدنيا والآخرة ، فهى خطر على المرء فى حياته الروحية والمادية ، الفردية والاجتماعية ، خطر على عقله وضميره ، خطر على نفسه وجسمه ، خطر عليه فى ذاته وفى أهله وولده ، وفى من حوله ، خطر على الفرد ، وعلى الأسرة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأمة كلها - بل على الإنسانية قاطبة ، بل على الإنسان والحيوان والنبات جميعاً .

وعلى الإنسان الذى عصى الله عز وجل : أن يعرف ويتذكر ويستحضر عقوبات الله تعالى على المعاصى والذنوب ، فقد جرت سنته سبحانه أن يعاقب عليها فى الدنيا قبل الآخرة ، تنبيها للغافلين ، وتعليما للجاهلين ، وتذكرة للناسين .

يقول تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

والفساد هنا معناه : الخلل والاضطراب والكوارث التى تقع فى الكون والحياة ، وعلى الإنسان ، بسبب ما كسبت أيديه من المعاصى والمخالفات لنواميس الله الشرعية والكونية ، كما قال تعالى فى آيات أخر : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٢) .

وإنما وقع هذا البلاء وهذه المصائب للناس ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ فهو سبحانه لا يجازيهم بكل ما عملوا من سوء ، بل يعاقبهم ببعضه فقط ، ويعفو عن الباقى وهو كثير - كما قال تعالى فى سورة أخرى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣) .

---

(١) الروم : ٤١ . (٢) آل عمران : ١٨٢ . (٣) الشورى : ٣٠ .

أكدت هذه الآية هذه القاعدة الشاملة الخطيرة ، وهى أن ما أصاب الناس من مصيبة فى حياتهم ، فليس ذلك ظلما ولا اعتباطا ، بل هو جزاء وفاق لما قاموا به من أعمال سيئة ، وتصرفات مرذولة، ثم بين عز وجل أنه لا يؤاخذ الناس بكل سيئاتهم ، ولا يعاقبهم بكل ما كسبوا ، وكل ما ظلموا ، وإلا لأهلك الأحياء كلها على ظهر الأرض بظلم الناس وذنوبهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ (٢) .

ثم هو سبحانه ينزل بهم هذه المصائب فى أنفسهم وأموالهم ، لا لينتقم منهم ، ولكن « لعلهم يرجعون » ، أى ليكونوا على رجاء الرجـــوع إليه ، بعد أن شردوا منه ، وضلوا عن سبيله ، فهو تعالى يذكرهم بهذه البلايا من نسيانهم ، وينبههم من غفلتهم لعلهم يرجعون ويتوبون .

وقد بين القرآن شؤم الكفر والظلم والمعصية على أهلها ، فيما أورد لنا من قصص الأنبياء والمؤمنين ، وأقوامهم المكذبين والعصاة ، وكيف أنزل الله بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، وكانت لهم أموال وأولاد ، وجاه ومنزلة وأتباع ، فما أغنى عنهم ذلك من الله شيئاً .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٣)

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٤) .

وفى سورة هود ذكر الله لنا قوم نوح وكيف أغرقهم الله بالطوفان ، وكيف

---

(١) النحل : ٦١ .
(٢) فاطر : ٤٥ .
(٣) الأنفال : ٥٣ .
(٤) الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٩ .

ودعهم الله بقوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) وكيف أهلك من بعدهم عادًا : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ ، أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٢) .

وبعد عاد جاءت ثمود ، وقال لهم نبيهم صالح : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ المُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ (٣) .

ولكنهم لم يطيعوه ، وعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، فأخذتهم الصيحة أو الرجفة ، فهلكوا جميعا : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلاَ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلاَ بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ (٤) .

وجاء بعدهم قوم لوط وما ابتكروا من فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين (فاحشة الشذوذ الجنسى) فقلب الله قريتهم عليهم وجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود : ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (٥) .

وجاء بعدهم أهل مدين ، الذين أشركوا بالله ، وعثوا فى الأرض مفسدين ، وبخسوا الناس أشياءهم ، وطففوا الكيل والميزان ، فدعاهم نبيهم شعيب إلى الله وإلى الإصلاح ، فكذبوا وأعرضوا ، وأصروا على ضلالهم وغيهم ، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثين ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٦) .

وجاء بعدهم فرعون ، ومعه هامان ، وقارون ، وجاءهم موسى بالآيات ، وسلطان مبين ، فكذبوا وأعرضوا واستكبروا : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) هود : ٤٤ .
(٢) هود : ٥٩ ، ٦٠ .
(٣) الشعراء : ١٥٠ - ١٥٢ .
(٤) هود : ٦٨ .
(٥) هود : ٨٣ .
(٦) هود : ٩٥ .
(٧) النمل : ١٤ .

واستخف فرعون قومه فأطاعوه ، واتبعوا أمر فرعـون ، وما أمر فرعون برشيد ، وأغرق الله فرعون ومن معه أجمعين .

وقد عقب الله تعالى على أنباء هؤلاء الأقوام ، وعاقبة ما آلوا إليه فقال تعالى يخاطب رسوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[1] .

ويقول النبى ﷺ : « إن الله ليمـــلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم تلا [2] : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » .

وفى السنة النبوية جاءت أحاديث صحاح وحسان شتى ، تبين لنا ما تجلبه المعاصى على مرتكبيها من أضرار ومآسى فى أولاهم قبل أخراهم .

وقد رأينا بأعيننا ، ولمسنا بأيدينا : صدق هذه الأحاديث ، وشاهدنا آثار المعاصى فى حياتنا الخاصة والعامة .

تذكر هذه الأحاديث ما رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم ، قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ..

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين (أى القحط والمجاعة) وشدة المؤنة ، وجور السلطان عليهم ..

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ،

---

(١) هود : ١٠٠ - ١٠٢ .

(٢) متفق عليه عن أبى موسى ، صحيح الجامع الصغير (١٨٢٢) .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان فى أيديهم .. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ، ويتحروا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم » [1] .

وها نحن نشاهد آثار هذه المخالفات والذنوب فى دنيانا ماثلة للعباد ، وبخاصة عقوبة الذنب الأول من هذه الخمسة ، وهو الداء العضال الذى ظهر فى عصرنا نتيجة انتشار الفاحشة والمعالنة بها ، وهو ما يعبر عنه باسم (الإيدز) .

كتاب (الداء والدواء) لابن القيم :

وللامام ابن القيم رحمه الله ورضى عنه : كتاب كامل سماه « الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى » وقد يطلق عليه اسم (الداء والدواء) ، وكله فى بيان سوء آثار الذنوب والمعاصى ، وشـــؤمها على الإنسان ، فردا ومجتمعا ، فى دنياه وآخرته ، فى مادياته ومعنوياته ، فى علاقـته بربـه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بأسرته ، وعلاقته بمجتمعه ، وعلاقته بالكون من حوله ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، وذلك بقلم ابن القيم البليغ ، وأسلوبه الأدبى الرفيع .

ونظر لأهمية هذا الكتاب ، لابد لنا أن نقتبس منه - مع بعض التصرف - أهم ما فيه ، وإن طال الاقتباس ، لأننا نريد أن نوقظ الضمائر النائمة ، ونحيي القلوب الميتة ، ونقوى العزائم المسترخية ، ونأخذ بأيدى العصاة حتى يتوبوا ، وبأيدى التائبين حتى يستمروا ، وبأيدى المهتدين حتى يزدادوا هدى .

من آثار المعاصى وشؤمها :

يقول ابن القيم :

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله .

حرمان العلم :

فمنها : حرمان العلم ، فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، والمعصية تطفىء ذلك النور .

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر : صحيح الجامع الصغير (٧٩٧٨) .

ولما جلس الإمام الشافعى بين يدى مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته ، وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إنى أرى الله قد ألـقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعى رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى   فأرشـدنى إلى ترك المعاصى
وقال : اعلـم بأن العلم فضل   وفضـل الله لا يـؤتاه عاصى

حرمان الرزق :

ومنها : حرمان الرزق ، وفى المسند : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » وقد تقدم ، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق ؛ فترك التقوى مجلبة للفقر ؛ فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصى .

الوحشة بينه وبين الله :

ومنها : وحشة يجدها العاصى فى قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلا ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة ، وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ! فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة ، لكان العاقل حرياً بتركها .

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه ، فقال له :

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب   فدعهـا إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب ؛ فالله المستعان .

الوحشة بينه وبين الناس :

ومنها : الوحشة التى تحصل بينه وبين الناس ، ولا سيما أهل الخير منهم ، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويـت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم ، وحرم بركة الانتفاع بهم ، وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما بعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم ، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه ، وبينه وبين نفسه ، فتراه مستوحشاً من نفسه .

وقال بعض السلف : إنى لأعصي الله فأرى ذلك فى خُلُق دابتى وامرأتى .

تعسير أمور العاصى :

ومنها : تعسير أموره عليه ؛ فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه ، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً ؛ فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً ، وبالله العجب ! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه ، وهو لا يعلم من أين أتى ؟ .

ظلمة القلب :

ومنها : ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهَمَّ ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته ؛ حتى يقع فى البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر ، كأعمى خرج فى ظلمة الليل يمشى وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ، ثم تقوى حتى تعلو الوجه ، وتصير سواداً فيه يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : « إن للحسنة ضياء فى الوجه ، ونوراً فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً فى الوجه ، وظلمة فى القلب ، ووهناً فى البدن ، ونقصاً فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق » .

ومنها : أن المعاصى وهن القلب والبدن ، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر ، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية .

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته فى قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه ، وأما الفاجر فإنه - وإن كان قوى البدن - فهو أضعف شىء عند الحاجة ، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه ، وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ؟ .

الحرمان من الطاعة :

ومنها : حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله ، وتقطع طريق طاعة أخرى ، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ، ثم رابعة

وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة ، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها [1] ، والله المستعان .

المعاصى تقصِّر الأعمار :

ومنها : أن المعاصى تقصر العمر وتمحق بركته ولابد ، فإن البر كما يزيد فى العمر ، فالفجور يقصر العمر .

وقد اختلف الناس فى هذا الموضع .

فقالت طائفة : نقصان عمر العاصى هو : ذهاب بركة عمره ومحقها عليه . وهذا حق ، وهو بعض تأثير المعاصى .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة ، كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة فى العمر أسباب تكثره وتزيده .

قالوا : ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقُص بأسباب ، فالأرزاق والآجال ، والسعادة والشقاوة ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وإن كانت بقضاء الرب عز وجل ، فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هى حياة القلب ، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حى ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الإنسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله ، فتلك ساعات عمره ، فالبر والتقوى والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ، ولا عمر له سواها .

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول ﴿ يَا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [2] فلا

---

(١) فى هامش الخطية وفى نسخة :

وكم من أكلة منعت أخاها ... بأكله ساعة أكلات دهر

وكم من إمرىء يسعى لشىء ... وفيه هلاكه لو كان يدرى

(٢) الفجر : ٢٤ .

يخلو ، إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا ؛ فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله ، وذهبت حياته باطلا ، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق ، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها ، وذلك نقصان حقيقي من عمره .

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته ، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته .

الجر إلى معاصي أُخر :

ومنها : أن المعاصي تزرع أمثالها ، ويولد بعضها بعضاً ، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ، كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها : اعملني أيضاً ، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك ، وهلم جرا ، فتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك جانب السيئات أيضاً ، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ؛ فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأحسَّ من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه ، حتى يعاودها ، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها ، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانىء حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها !

وقال آخر :

فكانت دوائي ، وهي دائي بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر !

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزًّا ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليه ، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين

فتؤزه إليها أزًّا ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد ، فصاروا من أكبر أعوانه . وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه .

إضعاف إرادة الطاعة :

ومنها - وهو من أخوفها على العبد - أنها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً ، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية ؛ فلو مات نصفه لما تاب إلى الله ، فيأتى من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشىء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصر عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه ، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك .

التبجح بالمعصية :

ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ، ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة ؛ حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يا فلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يُعَافَوْن ، ويسد عليهم طريق التوبة ، وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب ، كما قال النبى ﷺ « كل أمتى مُعافًى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار: أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله تعالى ، فيقول : عملت البارحة كذا وكذا . وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه »[1] .

هوان العاصى على الله :

ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه .

قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم ، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾[2] وإن عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم إليهم ، أو خوفا من شرهم ، فهم فى قلوبهم أحقرشىء وأهونه .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة - صحيح الجامع الصغير (٤٥١٢) .

(٢) الحج : ١٨ .

استصغار معصية الله :

ومنها : أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر فى قلبه ، وذلك علامة الهلاك ؛ فإن الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله ·

وقد ذكر البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود قال « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا ، فطار » ·

شؤم المعصية على جميع الكائنات الحية :

ومنها : أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه ، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم ·

قال أبو هريرة : إن الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم !

وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السَّنة (أى القحط) وأمسك المطر ، وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم ·

وقال عكرمة : دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب تقول : منعنا القطر بذنوب بنى آدم ·

فلا يكفيه عقاب ذنبه ، حتى يلعنه من لا ذنب له ·

المعصية تورث الذلة :

ومنها : أن المعصية تورث الذل ولابد ؛ فإن العز كل العز فى طاعة الله تعالى قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [1] ، أى فليطلبها بطاعة الله ؛ فإنه لا يجدها إلا فى طاعة الله ·

وكان من دعاء بعض السلف : اللهم أعزنى بطاعتك ، ولا تذلنى بمعصيتك ·

---

(١) فاطر : ١٠ ·

وقال الحسن البصرى : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه ! .

وقال عبد الله بن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها ؟

إفساد العقل :

ومنها : أن المعاصى تفسد العقل ؛ فإن للعقل نوراً ، والمعصية تطفىء نور العقل ولابد ، وإذا طفىء نوره ضعف ونقص .

وقال بعض السلف : ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله ، وهذا ظاهر ؛ فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى ، وتحت قهره ، وهو مطلع عليه ، وفى داره وعلى بساطه ، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه ! وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الإيمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟؟ .

الطبع على القلب :

ومنها : أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها ، فكان من الغافلين .

كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [1] قال : هو الذنب بعد الذنب .

وقال الحسن : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب .

---

(١) المطففين : ١٤ .

وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم .

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً ، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلا وختما ، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد .

جلب لعنة الله على فاعلها :

ومنها : أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة الله عز وجل ، ولعنة رسول الله ﷺ ، فإنه لعن على معاص كثيرة ، أو أعلن لعنة الله على مرتكبيها ، والتى غيرها أكبر منها فهى أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة ، فلعن الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والموصولة ، والنامصة والمتنمصة ، والواشرة والمستوشرة ، ولعن آكل الربا ومؤكله ، وكاتبه وشاهده ، ولعن المحَلِّل والمحلَّل له ، ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر ، وساقيها ، وعاصرها ومعتصرها ، وبائعها ومشتريها ، وآكل ثمنها ، وحاملها والمحمولة إليه ، ولعن من غير منار الأرض ، وهى أعلامها وحدودها ، ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثًا أو آوى محدثاً ، ولعن المصورين ، ولعن من عمل عمل قوم لوط ، ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كمه [1] أعمى عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من وسم دابة فى وجهها ، ولعن من ضار مسلماً أو مكر به ، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ، ولعن من أتى امرأة فى دبرها ، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب إلى غير أبيه ، وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة .

---

(١) كمه أعمى : يريد أنه أضله وعمَّى عليه ، ولم يرشده إلى مقصده .

وقد لعن الله (فى كتابه) من أفسد فى الأرض وقطع رحمه .

ولعن من آذاه وآذى رسول الله ﷺ .

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى .

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين .

ولعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل ، ولعن الراشى والمرتشى والرائش - وهو الواسطة فى الرشوة - ولعن على أشياء أخر غير هذه .

فلو لم يكن فى فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك ما يدعو إلى تركه .

الحرمان من دعاء النبى والملائكة :

ومنها : حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة ؛ فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١).

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله اللذين لا سبيل له غيرهما ؛ فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها ، والله المستعان .

---

(١) غافر : ٧ - ٩ .

إضعاف سير القلب إلى الله :

ومن عقوباتها : أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة ، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير ؛ فلا تدعه يخطو إلى الله خُطوة ، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه ؛ فالذنب يحجب الواصل ، ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته ، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التى تسيره ، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه . والله المستعان .

المعاصى تزيل النعم :

ومن عقوبات الذنوب : أنها تزيل النعم ، وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب ، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه « ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة » وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم ، وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) .

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التى أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فإذا غَيَّر غُيِّر عليه ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

ولقد أحسن القائل :

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعم
وحُطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم (٣)

إنساء العاصى نفسه :

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه ، وإذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها .

---

(١) الشورى : ٣٠ . (٢) الأنفال : ٥٣ .

(٣) حطها : احفظها وحصنها ، واجعل الطاعة كالسور المحيط بالمدينة ليمنع عنها عادية المغيرين .

فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه ؟ وإذا نسى نفسه فأى شيء يذكر ؟ وما معنى نسيانه نفسه ؟ .

قيل : نعم ينسى نفسه أعظم نسيان ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (١) فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم ، كما قال الله تعالى ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(٢) فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين :

إحداهما : أنه سبحانه نسيه .

والثانية : أنه أنساه نفسه .

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ؛ فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم ، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به ، ينسيه ذلك جميعه ؛ فلا يُخطره بباله ، ولا يجعله على ذكره ، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ؛ فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره .

وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها ؛ فلا يخطر بباله إزالتها .

وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها ؛ فلا يخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعى فى إزالة عللها وأمراضها التى تؤول به إلى الفساد ، والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ، ولا يشعر بمرضه ، ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة .

المعيشة الضنك :

ومنها : المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٣) ، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة

---

(١) الحشر : ٥٩ : ١٩ . (٢) التوبة : ٩ : ٦٧ . (٣) طه : ١٢٤ .

الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات ؛ فإن عمومها من حيث المعنى ؛ فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم فى الدنيا بأصناف النعم ؛ ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ؛ فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر ؛ فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه فى عسكر الأموات ؛ فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ فى دنياه وفى البرزخ ويوم معاده ، ولا تقر العين ، ولا يهدأ القلب ، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل ؛ فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ؛ فلهم أطيب الحياتين ؛ فهم أحياء فى الدارين ،ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ونظيرها قوله تعالى ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (٣) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين ؛ فإن طيب النفس ، وسرور القلب وفرحه ، ولذته وابتهاجه ، وطمأنينته وانشراحه ، ونوره وسعته وعافيته ، من ترك الشهوات المحرمة ، والشبهات الباطلة ، هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه .

---

(١) النحل : ٩٧ . (٢) النحل : ٣٠ . (٣) هود : ٣ .

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف !

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ! ، وقال آخر : إن في الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة ؛ فمن دخلها دخل تلك الجنة ، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حَلَق الذكر [1] » وقال « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » [2] .

ولا تحسب أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [3] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل فى دورهم الثلاثة هم كذلك - أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار - فهؤلاء فى نعيم ، وهؤلاء فى جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟ وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن ، وضيق الصدر ، وإعراضه عن الله والدار الآخرة ، وتعلقه بغير الله ، وانقطاعه عن الله ، بكل واد منه شعبة ؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات فى هذه الدار ؛ فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل ، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته ، والتنغيص والتنكيد عليه ، وأنواع من العذاب فى هذه المعارضات ، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه ؛ فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار .

وأما فى البرزخ : فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجو عوده ، وألم فوات

---

(١) رواه الترمذى وحسنه من حديث .

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد المازنى ، وأبى هريرة : صحيح الجامع الصغير (٥٥٨٦ ، ٥٥٨٧) .

(٣) الانفطار : ١٣ ، ١٤ .

ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد ؛ فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان فى أبدانهم ، بل عملها فى النفوس دائم مستمر ، حتى يردها إلى أجسادها ؛ فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه ، واشتياقاً إليه ، وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره .

فيامن باع حظه الغالى بأبخس الثمن ، وغبن كل الغبن فى هذا العقد ، وهو يرى أنه قد غبن ، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين !

فياعجباً من بضاعة معك الله مشتريها ، وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يديه عقد التبايع ، وضمن الثمن عن المشترى ، هو الرسول ﷺ ، وقد بعتها بغاية الهوان ، كما قال القائل :

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يكرم ؟

﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) .

* * *

(١) الحج : ١٨ .

خاتمـــــــة

لقد تبين لنا من هذه الدراسة : أن أعظم ما ينفع الإنسان طاعة ربه ، وأكبر ما يضره معصيته عز وجل ، فليس أضر على الإنسان فى دنياه وآخرته من ذنـــوبه وخطاياه ، بل الذنوب والخطايا ضرر على المجتمع كله ، وليس على المذنب وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (١) .

بل الذنوب والخطايا خطر على البيئة كلها : برية وبحرية ، حيوانية ونباتية ، بل على التوازن الكونى كله ، كما نقرأ عن (ثقب الأوزون) ونحو ذلك .

كما عرفنا أن كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، فمن رحمة الله بالإنسان أن أعطاه هذه (الممحاة) أو هذه « المغسلة » وهى التوبة ليغسل بها نفسه كلما زلت قدمه ، وغلبت فيه نزعة الطين على نفحة الروح .

وكل إنسان فى حاجة إلى التوبة ، وعلى قدر رهافة حسه ، ورقة شعوره ، يكون إحساسه بالتفريط فى جنب الله ، والتقصير فى حقوق الناس ، وإحساسه بالحاجة إلى التوبة .

والتوبة مطلوبة من الفرد وهى مطلوبة من المجتمع أيضاً من ذنوبه العامة ، مثل تعطيل شريعة الله ، وإهمال فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واستباحة الخلاعة والمسكرات والربا المؤذنة بحرب الله ورسوله ، والإعراض عن الوحدة ، والاستجابة لدواعى الفرقة والخلاف ، والولاء لغير الله بل موالاة أعداء الله ، والوهن والدعوة إلى السلم مع المعتدين على الأرض والعرض ... كل هذه تتطلب من المجتمع كله أن يتوب إلى الله ، ويرجع إليه .

ومن الناس من يتصور أن الذنوب تنحصر فى الزنى وشرب الخمر ونحوها ، ويغفلون ذنوبا أخرى كالتى تتعلق بحقوق الناس وكراماتهم وحرياتهم ، أو تتعلق بتلويث البيئة أو إفساد الحياة .

---

(١) الأنفال : ٢٥ .

من الناس من تراه يصلى فى المسجد ، ويتلو القرآن ، ويسبح فى اليوم مائة مرة ، ويذهب إلى العمرة فى كل رمضان ، وهو - مع هذا - يرتكب مآثم فظيعة ، أو يعاون فيها ، مثل تزوير الانتخابات ، أو الاعتداء على حرية الشعب ، وحقوق الإنسان ، أو قبول الرشوة باسم الهدية أو العمولة ، أو تسهيل استيراد الأغذية الفاسدة ، أو الملوثة بالإشعاع ، أو لحوم البقر المجنونة ، أو مدح الحكام الطغاة ، وترويجهم لدى الشعوب .

ومن الناس من يعتدى على البيئة ، فيلوثها أو يفسدها أو يدمرها ، بعمل من الأعمال التى لا يرضاها الله ولا رسوله ولا المؤمنون ، ولا يحسب ذلك من الذنوب والمعاصى التى يجب عليه التوبة والاستغفار منها .

وهناك كثير من الذنوب والخطايا يقع فيها الجم الغفير من البشر ، وهم لا يشعرون ، لجهلهم أو لبلادة حسهم ، أو لخفائها عليهم ، ولا سيما إذا كانت من خطايا الضمائر ومعاصى القلوب ، التى تدق وتخفى على كثير من الناس .

وطوق النجاة للإنسان من هذا المأزق : أن يتوب إلى الله تعالى توبة عامة شاملة : مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم ، فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ، ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم ، فإنه عاص بترك العلم والعمل ، فالمعصية فى حقه أشد ، وفى صحيح ابن حبان : أن النبى ﷺ قال « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يا رسول الله ؟ قال : أن تقول : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » .

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ، ولا يعلمه العبد .

وفى الصحيح عنه ﷺ : أنه كان يدعو فى صلاته : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى جِدى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكلُّ ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما

أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت إلٰهى لا إلٰه إلا أنت » .

وفى الحديث الآخر « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقه وجله ، خطأه وعمده ، سره وعلانيته ، أوله وآخره » .

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتى التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه .

فيا أيها الشاردون عن الله ، آن لكم أن ترجعوا .. ويا أيها الغافلون عن الآخرة ، آن لكم أن تنتبهوا ، ويا أيها الناسون للموت آن لكم أن تتذكروا .. ويا أيها السكارى بحب الدنيا ، آن لكم أن تصحوا .. ويا أيها الهازلون ، آن لكم أن تجدُّوا ، ويا أيها المستمرئون للمعاصى آن لكم أن تتوبوا .. توبوا والباب مفتوح قبل أن يغلق ، والفرصة متاحة قبل أن تفوت ، وفى العمر بقية قبل أن تضيع : ﴿ مِّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

اللهم تب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ، واغفر لنا إنك أنت العزيز الحكيم : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ ، إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢) .

* * *

(١) المنافقون : ١٠ ، ١١ .

(٢) آل عمران : ١٩٢ - ١٩٤ .